الفصل الثالث

الباحث ومشكلات المعرفة

المبحث الأول: الأدوات ومستوى التمكن العلمي.

المبحث الثاني: المداخل المعرفية للباحث.

المبحث الثالث: موقف الباحث بين الخبر والنص.

المبحث الرابع: أخلاقيات البحث في العلوم الإنسانية.

المبحث الخامس: الباحث وتطور المفاهيم النقدية.

المبحث الأول
الأدوات ومستوى التمكن

فى أى من العلوم نتحدث عن امتلاك الحد الأدنى من الأدوات البحثية، التى يمكن أن تعطى الباحث الحق فى إصدار الحكام تجاوزا لحالة الفوضى أو العشوائية التى قد تدمر البحث الأدبى، وتسقط احترام نتائجه، وتفقده الصدق وصحة المنهج.

ولعل العلوم الإنسانية تختلف فى كثير من الحيثيات عن العلوم التطبيقية، ومع هذا تتلاقى فى هذه المتطلبات الأساسية التى يفتح فيها باب الاجتهاد وإعمال العقل وتجليات الذات، ولكن فى إطار الضوابط والأنساق المنهجية الصادرة عن امتلاك الأدوات إلى حد التمكن والتمثل، أو القصور والتقصى على غرار حديثنا عن عالم المفسر ـ مثلا ـ بما يجب عليه أن يتسلح به من أدوات لغوية وبلاغية إلى جانب إلمامه بمعرفة أسباب النزول وأحكام الخاص والعام، ودراسة المكى والمدنى، وخصوص السبب وعموم الحكم، مع وجوب اطلاعه على مذاهب المفسرين ومروياتهم وأخبارهم وآرائهم، إلى جانب قدرته على تفسير النص ـ مثلا ـ من خلال شمولية الرؤية والفهم، أو القراءة التاريخية والأدبية لجماليات النص ومستويات التصوير وآليات التشكيل وملامح الصياغة، وأسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز (مع استعارة المسمى من الجرجانى)؛ الأمر الذى يتطلب كثيرا من القراءات للعلوم القرآنية، حتى يصبح اجتهاد المفسر صحيحا لا يصدر عن فراغ أو جهل، مما لا يليق بدخوله هذا الميدان الجليل من ميادين الدراسة.

وقياسا على أدوات المفسر ترد أدوات الدارس لعلم الحديث، ووجوب اطلاعه على علوم الرجال والجرح والتعديل، وعلوم السند، ورحلة الحديث، إلى جانب دراسة المتن، وتحليل الموضوع وصولا إلى صحة النص، وتجاوزا للأحاديث الموضوعة والإسرائيليات التى أحاطت كثيرا بالنصين المقدسين من قرآن وسنة.

ويمتد وجوب امتلاك الأدوات إلى بقية الدراسات؛ ومنها ـ بالتأكيد ـ حقل الدراسة الأدبية والنقدية الذى يفترض فيه إلمام الدارس بمجموعة من الأدوات المنهجية تبدأ من فهم أصول منهج البحث تاريخا ونظرا وتطبيقا، وانطلاقا إلى امتلاك الأدوات المرتهنة بدراسة المادة (المصدر) بعد التحقق من صحة مصادرها، وتجاوز أى تشكك فى محتواها؛ ليبدأ رحلته مسلحا بالمنهج المنتقى بين الجمالى، والتاريخى، والوصفى، والأسلوبى، والإحصائى وغيره.

هنا قد يحتاج الباحث الوقوف على بقية المناهج من قبيل الدراسة الدقيقة والإلمام بها، أو محاولة الإفادة منها على هامش المنهج المنتقى، واستكمالا لعطاءاته، فلا مانع من إفادة الباحث ـ مثلا ـ مما انتهى إليه العقاد فى دراسته لنفسية ابن الرومى من شعره بتطبيق المنهج النفسى، وكذا نفسية أبى نواس وشخصية بشار للنويهى، أو شاعر الغزل للعقاد أيضا، أو الحسن بن هانئ، أو غير ذلك من دراسات جمالية للنويهى نفسه فى داسته المطولة حول (الشعر الجاهلى : منهج فى دراسته وتقويمه) تأثـرا بمنهج إليوت فى إمكانة عزل النص عن صاحبه ومجتمعه، أو غير ذلك من دراسات منهجية بنائية لـ "كمال أبو ديب" ومحمد الهادى الطرابلسى وغيرهما؛ ذلك أن حاجة الباحث إلى التعددية القرائية عبر المناهج تظل مطلبا ضروريا وملحا، حتى يدرك حقيقة موقعه بين حقول الدراسة الأدبية، ثم حدود منهجه وسبل الإفادة من المناهج الأخرى، دون انقطاع معرفى بها، ولا تجاهل لها، ولا استنكاف للتأثر بها من باب التميز أو الرفض المطلق.

وكما يتكرر فى دراساتنا الأدبية، فالأمور نسبية بحكم الطبيعة النوعية التى نتوقع من ورائها اشتراكا فى بعض المساحات، أو اختراقا فى غيرها، وهو ما يثرى هذا

المجال شريطة امتلاك الأدوات، والتمكن منها، دون الاقتصار على الإلمام الخاطف بها، أو القبول بأى ادعاء للجهل بأصولها ومقوماتها.

ويبقى هنا أن يجنح الباحث إلى التطبيق حتى يجد متسعا للإضافة والابتكار؛ إذ يحتاج ضربا من التبارى بحثا عن الإضافة والجديد، على ما هو حادث فى حقول العلم التطبيقى وعلوم المعرفة الإنسانية، وثورات التكنولوجيا المتلاحقة.

المبحث الثاني
المداخل المعرفية للباحث

غير متوقع وغير مقبول إقدام الباحث خلوا من مفهوم المنهج، وعلاقته بالبحث العلمى، أو تصوره أن المسألة تسير فى اتجاه الفوضى، أو الذاتية، أو الارتجال، أو العشوائية. ولعل هذا الطرح يفترض وجوب التوصية فى مجتمعاتنا العربية بأن تدخل مناهج البحث والتفكير العلمى ضمن المقررات المدرسية والتربوية فى مراحل التعليم العام، انطلاقا من خطر مرحلة التكوين، وأهمية الإيمان بقيمة العلم ومناهجه، ووجوب ترسيخها فى ذاكرة النشء ووجدانه.

فإذا تم الاتفاق على هذه المسلمة ـ باعتبارها ضرورة ـ بدا العلم سبيلا معرفيا له أهميته، وله – أيضا – دوائره ومساحاته ومداخله وموضوعاته، وله كذلك مشكلاته ومقدماته ونتائجه.

فالعلم – بهذه المعيارية – نشاط إنسانى منظم له آلياته وخصائصه، وله أدواته ومناهجه التى ينبغى أن يتعرفها الباحث، وأن يصدر عنها بدءا من وجوب:

١- وضوح الرؤية ودقة المفاهيم، وإزالة الغموض وأمن اللبس، وكشف الحقائق، وتجاوز الأوهام والخرافات والأساطير، مع تقدير منزلة المعقول والمفهوم، ومع الوعى الدقيق بحدود المصطلح من واقع استقراء ما حوله من دلالات ومعان، وما يحيط به من شواهد وأدلة وبراهين.

٢- اتساق المقدمات مع النتائج ضمانا لعدم الوقوع ضحية الارتباك أو التناقض، أو زحام الاحتمالات أو الاضطراب فى أى من خطوات البحث؛ ذلك أن التجانس ودقة الانتقال بين التفاصيل والجزئيات يظل ضامنا لصحة الأداء المنهجى دون خلل أو ضعف.

٣- تقدير الفروق الجزئية بين العلوم الإنسانية والطبيعية انطلاقا من مفهوم التكامل المعرفى، ووحدة الفكر الإنسانى، مع قبول التعددية والأنماط بما بينهما من مفارقات وما بينها – أيضا- من صيغ التلاقى والتجانس، فى سياق منظومة العلاقات البينية الحاكمة لمنظومة الفكر البشرى.

٤- التمكن من الأدوات الأساسية للباحث من حيث تقديره للمشكلة موضوع الدراسة، بما تتطلبه من الاستقراء والاستقصاء من باب الاطمئنان إلى قراءة أبعاد الموضوع، وبما يكملها من تقرير للحدود الفاصلة بين النسبى والمطلق، بين الشك واليقين، الجزئى والكلى، البرهنة والاستدلال والظن والحدس، مع توظيف الحجة والدليل، وتقليص عناصر الاحتمال فى تقدير الأشياء، أو تقرير المسلمات والبدهيات، وتجاوز الفردية والذاتية إلى التكاملية وضمانات التواصل العلمى.

٥- إتاحة مساحة مناسبة للشك، وقبول التعددية والرأى المضاد، وتجنب الصياغات المجانية غير الهادفة، وكذا البعد عن النبرة الخطابية والموضوعات الإنشائية، وما يشبه ذلك من الإطناب والإسهاب والإطالة غير المبررة؛ مما يخرج عن نطاق العلمية والدقة المنهجية.

٦- الإفادة من تراكمية العلم وتواصل الأجيال، وتلاقى الأفكار أو حتى تناقضاتها، مع إدراك الحدود الفاصلة بين الموضوعية والتأثرية، الفكرة المسبقة، والفكرة العارضة أو الطارئة، بين الانضباط والفوضى، مع تجنب تغليب المقاصد الشخصية والأهواء الخاصة على المعطيات والحقائق.

٧- وجوب الدقة والتمهل والأناة والروية فى فحص المعلومات واكتشاف ما بينها من علاقات التناقض أو التجانس أو التلاقى، أو التقارب، وهو ما يختلف – بالطبع- حسب مجال البحث ونوعه وحقله المعرفى وأهدافه ووسائله وآلياته.

...هكذا يبدو امتلاك الأدوات والمداخل المعرفية للباحث مطلبا أساسيا، مع البدء فى مرحلة الإعداد والتكوين للبحث العلمى، مع تأكيد معيارية تميز العلم واللاعلم، ومنطلقات تحقيق غايات العلم فى سياق منهج علمى واضح ومحدد الأبعاد والخطوات والنتائج، تأسيسا على أن المنهج – أصلا – هو الطريق الواضح الذى ينتهى إلى مقاصد وغايات أكثر وضوحا وجلاء وإقناعا.

المبحث الثالث
موقف الباحث بين الخبر والنص

أمام الخبر التاريخى يتوقف الباحث طويلا باعتبار مراجعة مصادر الخبر وطبيعته النوعية بين أخبار الآحاد والتواتر، وأمام أخبار الآحاد يحتاج الأمر تأملا آخر وصولا إلى درجة من الاطمئنان لمصداقيتها؛ من حيث القناعة بوقوعها واستجلاء الوقائع والحقائق والاحتمالات حولها، على غرار ما طرحه –مثلا– ابن عبدربه فى "العقد الفريد" من ورود قصة المعلقات، وما كان من خبر تعليقها على أستار الكعبة، وكتابتها بماء الذهب؛ حيث يستدعى الأمر إعادة قراءة الخبر، من خلال عدة اعتبارات :

أولها : أن الخبر لم يتواتر فى جيل المؤرخ نفسه، وبالتالى فما نقل عنه فى مراحل تالية لا يمثل حجة أمام وحدة المصدر، إذا شابه احتمال الخطأ وعدم التواتر.

ثانيا : لا يوجد لدينا دليل تاريخى على أن كلمة (معلقة) ذاتها تدوولت فى الجاهلية، أو أطلقت على بعض قصائد المرحلة، ومن ثم فقد تعددت مسمياتها بين (القلائد) و(السموط) و(المعلقات)، و(المذهبات) و(المسمطات) و(السبع الطوال)، والأرجح أنها أسماء أطلقت فى عصر التدوين فى القرن الثانى الهجرى.

ثالثا : أن الثابت تاريخيا اختلاف الرواة حول عدد المعلقات بين سبع لدى الزوزنى وتسع عند أبى جعفر النحاس، وعشر لدى ابن الأنبارى والتبريزى، فلوكانت قد علقت فى عصرها لما اختلف القوم حتى حول عددها!!

رابعا : أن تعددية الرواية حول البيت الواحد وبعض مفرداته، وأحيانا نسبته إلى أحد شعراء المرحلة يظل شاهدا على طبيعة الرواية الشفاهية، التى تحتمل هذا التعدد الذى قد تدعمه المرحلة التاريخية فى رحلتها إلى عصر التدوين، منذ نزل الرواة إلى البادية لجمعها من أفواه أبنائها، أو حين جاء البدو راحلين إلى المدن العراقية، وبيع مالديهم من أشعار حفظوها فى صدورهم.

خامسا : أن أخبار التاريخ لم تسعفنا بما حدث – مثلا- يوم الفتح الأعظم، ودخول رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فاتحا يحطم الأصنام، التى كثرت حول الكعبة بأكثر من ثلاثمائة وستين صنما، كان القوم يعبدونها من دون الله لتقربهم إليه زلفى، فلم تأت الأخبار لتصور لنا ماذا كان الموقف من المعلقات المدرجة على أستار الكعبة، وقد كتبت بالذهب على ستائر من حرير ؟!

وربما أمكن طرح أسئلة أخرى كثيرة قد يندفع إليها الباحثون فى نقد الخبر والبحث عن دلالاته ومصادره واحتمالات قبوله أو رفضه، مما يخلص الدرس الأدبى من خطر الأخبار المرسلة، وتداعيات الادعاءات غير الدقيقة، والتى يمكن الاحتكام فيها إلى العقل والنص للخروج برأى علمى، منضبط على أساس من صحة المنهج.

وعلى غرار ذلك ما يجب أن يتمتع به الباحث من استقصاء آراء المؤرخين وفلاسفة التاريخ فى تمحيص الأخبار، لاسيما فى حالة المفارقة بين إغراء القص التاريخى ومراجعة موقف المؤرخ من ترجيح زاوية إخبارية معينة على نحو ما رصده –مثلا- جورجى زيدان فى قصته التاريخية حول (العباسة أخت الرشيد)، وما أداره المؤرخون حولها من أزمة العلاقة والزواج السرى من جعفر البرمكى، ليفتح بسببها باب نكبة البرامكة؛ وهو الباب الذى شغل به ابن خلدون فى المقدمة حين عرضها على العقل وسياق المرحلة العباسية، التى تضخم فيها أمر البرامكة بقصورهم وسلطانهم وشعرائهم ووزارئهم وكتابهم حتى أدرك الرشيد خطرهم على الدولة،

التى راحوا يمثلون خطرا عليها باعتبارهم دولة داخل دولة، فكان على الرشيد ومن حقه وواجبه أن يوقف زحفهم من منظور سياسى يقتضيه الصالح العام، وليس الموقف الخاص بين علية بنت المهدى (أخت الخليفة)، وجعفر البرمكى.. إلا أن يظل الخبر مجرد ذريعة لتنكيب البرامكة وحبس يحيى وخالد وجعفر، والانتقام من أسرة لها فى السياسة باع طويل، وعلى الخلافة منها فضل عظيم وخطر كبير.. بمثل هذه المرويات وأشباهها، وأمام اجتهادات القدماء يحتاج الأمر من الباحث أن يتوقف أمام الأخبار باحثا عن صدقها وتواترها وأسانيدها وتكرارها، وما حولها من تعليقات ومواقف ورؤى واحتمالات ترجيح أو يقين، وهو ما يحتاج ـ بدوره ـ امتلاك أدوات نقدية جادة فى قراءة التاريخ، تؤهل الباحث للاقتراب من الحقيقة والابتعاد عن شبهة الظن والاحتمال.

أما الباحث أمام النص الإبداعى فهو يعيش حالة خاصة، باعتبار أن تحليل النص يمثل المملكة الخاصة التى تفتح الأبواب لإعمال أدوات الباحث وقدراته من حيث امتلاك الوعى النقدى، والقدرة على التفسير والتحليل، والوعى بأبعاد النص؛ مما يحتاج سلسلة من القراءات اللغوية والبلاغية والنقدية واللغوية، وهو ما يبعث فى الباحث الاستعداد لتتبع النص بدءا من حروفه ومقاطعه ومفرداته وتراكيبه وأساليبه وصوره وموسيقاه الخارجية والداخلية، ومعايير التصوير فى النسق البيانى والأسلوبى والسياقى والبديعى، ومستوى الصنعة بين العفوية والتكلف ودرجات الارتجال والبديهة، ومستويات الكلفة والتصنع والتصنيع وغيرها من مصطلحات الباحثين على اختلاف ثقافاتهم ومعارفهم ومدارسهم.

فالباحث أمام النص يحاول استجلاء الحقيقة النسبية، معبرا عن خلاصة قراءاته وقناعاته، ومن هنا تتعدد الرؤى والنتائج بمقدار طبيعة المساحات المشتركة بين الباحثين، والتى تحميهم من الوقوع فى دائرة الفوضى النقدية؛ ذلك أن الاتفاق على مجموعة من الأدوات القرائية يقرب المسافة بين الباحثين اقترابا من دائرة النقد الموضوعى، وتجاوزا لإطلاق العنان للانطباعات الشخصية، أو إيثار التأثرية أو

الاستسلام لها، بما قد تعززه من كثرة الأحكام التى لارابط بينها، أو – على الأقل- كثرة الأحكام العشوائية المرتجلة، التى قد لا نجد لها صدى من الصدق والموضوعية، أو الإضافة للساحة النقدية.

معنى هذا كله أن الباحث الجاد يجب أن يصدر عن قناعاته النقدية والتاريخية بعد دراسة وتمحيص، واعتمادا على نتائج الجمع والاستقراء، ومعاودة النظر ومناقشة الآخرين، ليظل النص الشعرى – الشاهد- مجالا خصبا، ينطلق فيه الباحث بتعليقاته النقدية التى يجب أن تبرأ من شبهة النقل، كما تبرأ من شبهات الإنشائية والنبرة الخطابية واللغة المدرسية، فللبحث الأكاديمى مقوماته وأصوله، وله أيضا توقعاته التى تتراءى من خلال شخصية صاحبه فى التحليل والتقويم بناء على الوعى العلمى بآليات المنهج وخطواته.

المبحث الرابع
أخلاقيات البحث فى العلوم الإنسانية

من المسلم بـه أن أمتنا – فى فترة نهضتها الثقافية فى عصورها الوسطى الزاهرة- قد قطعت شوطا تاريخيا ملموحا فى العلوم الإنسانية، ربما يفوق ما أنجزته فى مساق العلوم التجريبية، ومن ثم تجلت قدرتها على التثاقف مع شعوب الأرض فى علوم التاريخ والفلسفة والاجتماع والدراسات النفسية والأدبية والنقدية واللغوية.

ومن البدهى - أيضا - أن ثمة ركودا قد أصاب الأمة نتيجة الهجمات الاستعمارية الشرسة، التى أوقفت تطورها ونموها الثقافى، ووجهتها إلى مجرد الدفاع عن أرضها، أومحاولة إجلاء المحتل عنها، الأمر الذى نقل الرهان على التقدم إلى الغرب الأوربى الذى سجل تفوقا وتميزا حيث بنى على ما تم نقله، وأخذ نفسه بمنطق التجديد والابتكار والإضافة، مما تجلى فى حركة ثورات المعرفة وتقدم العلم والتكنولوجيا.

وأصبح لسان حال العلوم الإنسانية يدعو إلى وجوب التأمل والمراجعة لحالة الخمول البحثى، والركود المنهجى الذى آل إليه أمرها وأمر أهلها بما يتطلب إعادة قراءة واقعها، وتشخيص الحالة بموضوعية وحيدة، ومحاولة البحث عن الحلول وصيغ العلاج بشكل علمى مقبول.

وليس جديدا أن يفتح الحوار حول أخلاقيات البحث العلمى فى هذا الجانب من الدراسة. ولكن الجديد أن يعاد طرح الموضوع فى سياق البحث الدائم والمتجدد عن

أخلاقيات البحث العلمى بوجه عام؛ الأمر الذى يمكن أن نحدد له محاور ونقاطا جزئية تعد مداخل للدراسة والتحليل، لعلها تتحول – بدورها – إلى أسس ومقومات للباحثين الجدد فى هذا الميدان :

أولا : البحث عن مناطق الجدة والابتكار، وتجنب التكرار والاجترار والمطروق والمستهلك، ومحاولة التخلى عن فكرة الحصول على درجة علمية بالبحث إلى فكرة طرح الجديد واستكشافه، من خلال إعمال المهارات والقدرات الخاصة للباحث بمعزل عن الاستخفاف بمنطقة البحث، وسعيا إلى التمكن من أدواته، والتسلح بآلياته أيا كانت درجة المعاناة بين مصادره ومراجعه.

ثانيا : سلامة المرجعية والصدق المنهجى فى التعامل من خلالها من منطق الاستقراء لأركان الظاهرة – موضوع الدراسة – واستقصاء المادة العلمية، إلى جانب الاختيار الدقيق لمصادر البحث ومراجعه دون لجوء إلى المرجع الوسيط، أو المراوغة فى النقل من المصدر، أو تشويه صورة المادة المنقولة، أو ما يقارب ذلك من خلل فى التعامل مع المادة، بما يؤثر على تمثل موضوع البحث وقدرة الباحث الحقيقية على التواصل معه، والانطلاق به إلى آفاق جديدة يجب أن تحسب للبحث أكثر من احتسابها عليه.

ثالثا : احترام الخبرات السابقة وتقدير أصحابها، والتزام الموضوعية فى مناقشة الآراء بعيدا عن البعد الشخصى أو الانطباعى، وإغفال الجانب التأثرى الذى قد يطمس الحقيقة، أو تغلب عليها ظلال الشك بدلا من اليقين. ويمتد الاحترام إلى أدب الحوار مع الآخر، بدءا من النقل عنه، إلى أسلوب المناقشة اتساقا معه، أو معارضته، دون جور على أخلاقيات التعددية، وقبول الاختلاف، بما يضمن صحة المنهج وسلامة النتائج.

رابعا : الالتزام بالخصائص المتعددة للبحث، والتى تتجلى قسماتها فى :

١ – أمانة إجراءات البحث.

٢- تجنب التزيد والتكرار.

٣- البعد عن المغالطات والأخطاء.

٤- البعد عن الادعاء، أوتضخيم الذات أوالاستعلاء والانبهار، أو التماهى مع الآخر.

٥- الحرص على وضوح الأسلوب وسلامة اللغة وصحة السياقات، والميل إلى العلمية بمنأى عن الخطابية والإنشائية والإطناب المفتعل.

٦- الالتزام المرجعى بالبيانات والطبعات، وسنوات النشر، وتطبيق ما درسه الباحث نظرا وتطبيقا فى مناهج البحث عبر سنوات الدراسة وتمهيدى الماجستير.

خامسا : محاولة الخلاص من تدنى وضعية بحوثنا المرحلية فى العلوم الإنسانية وصناعة طوق النجاة، بما يقربها من المناهج العلمية الصارمة، عبر عدة صيغ منهـا :

١- الدقة فى اختيار الموضوع البحثى بما يستحق الدراسة، والبحث الجيد هو الذى يثير مشكلة، ويتوقع من ورائه نتائج وحلول وتوصيات، قد يكون لها بعد قومى أو وطنى أو إنسانى أو قيمى.

٢- تحديد المنهج المختار للدراسة بعيدا عن التلفيق بين المناهج، أو خلط الأوراق، مع وضوح المفاهيم، وحدود المصطلح، وضبط مسار الموضوع طبقا لحدود المنهج وتمثل الرؤية وبروز الموقف العلمى للباحث.

٣- التوصية لدى السادة المشرفين بعدم التهاون مع الدارسين فى أى من أخلاقيات البحث، سواء من باب التعاطف الإنسانى أو تقدير ظروف الباحث، ولابد من التفرقة الصريحة بين مرحلة البحث العلمى، ومراحل التعليم السابقة عليها، فالبحث العلمى يظل قصرا على امتلاك الأدوات والمهارات والقدرات والاستعداد، دون تنازل عن أى منها ، أو تحت أى ظرف.

٤- التوصية لدى السادة الفاحصين والمناقشين للرسائل العلمية بعدم التهاون فى المناقشة، وتجاوز مسألة المجاملات والمواقف الشخصية مع جدية التركيز على أخطاء المنهج والتناقضات، وغيرها من أدوات الصقل المعرفى والمنهجى والأخلاقى لدى الباحث، مع الدقة فى تحديد التقدير الذى يمثل حكما صريحا على البحث العلمى.

٥- التوصية لدى الكليات والأقسام الإنسانية بإلزام الباحث بالأخذ بالملاحظات العلمية، والعمل بها تعديلا لبحثه، قبل اعتماد الدرجة العلمية حتى لا تتحول المسألة إلى ما هو حادث فعلا الآن من اعتبار المناقشة مجرد مسألة شكلية، قد لا يعبأ الباحث بما وراءها من تعديلات يجب إجراؤها على صفحات البحث، وإعادة طبعه على أساس منها قبل تقديمه للمكتبة الجامعية وقبل إدراجه ضمن رسائل الدراسات العليا.

سادسا : اعتبارات واجبة ومسلمات ضرورية :

الالتزام بخصائص التفكير العلمى من عدة جوانب :

١- احترام الفروق بين العلوم الطبيعية والإنسانية.

٢- قبول التعددية وإجراء البحث على أساس من توازن الحوار.

٣- تجاوز مسألة الحدس والمطلق والفرضى .

٤- تقدير دلالات الشواهد وتغييب الميول الذاتية.

الاعتراف بأسباب إخفاق البحث العلمى من عدة جوانب :

١- عدم تحرى الدقة فى رصد الملاحظات والآراء والمتغيرات.

٢- صدق الإسناد وتجاوز الهجوم الشخصى.

٣- تجاهل الأدلة المضادة والركون للأفكار المسبقة.

٤- الاعتراف بسلطة النص مع حرية الحركة فى التعامل معه.

تقدير مستويات العلاقة بين الباحث والبحث :

١- مستوى التمثل والإدراك والإتقان وصدق النتائج وامتلاك الأدوات.

٢- مستوى الحوار والتأصيل مع الابتكار والتجديد، دون تناقض أو انشطار ذاتى.

٣- طبيعة التفاعل مع الواقع وقراءة مفرداته وأبعاده بمنطقية وامتداد الرؤى والاجتهادات لقراءة المستقبل.

٤- تعزيز منطق التواصل المنهجى وتجنب القطيعة المعرفية وتجاهل الآخر، مع تحديد مناطق النمطى والجديد بعيدا عن الادعاء والتجاوز.

المبحث الخامس
الباحث وتطور المفاهيم النقدية

يجب على الباحث تجاوز مرحلة النقد الانطباعى، أو النقد الصحفى العارض، أو تغليب الضغط الإيديولوجى فى تأويل الظاهرة النقدية، مع ترشيح الميل إلى النقد الموضوعى، أو النقد المنهجى فى أوسع صوره ومجالاته.

يبدأ المفهوم ـ هنا ـ من حقيقة قراءة المراحل النقدية بين التحليل بكل درجاته، ثم التقويم بكل مستوياته.

كما يبدأ التحليل من تحديد الماهية، إلى استعراض أدوات التشكيل؛ ليتوقف عند الوظيفة، أو مجموعة الوظائف المنجزة خلال العمل الإبداعى.

ثم يأتى التقويم : بناء على نتائج التحليل، مع الدقة والحذر فى إصدار الأحكام.

ومع المتابعة الآمنة للتناص، وعبر سبل التفاعل مع النص القديم أو الحديث.. تأتى الدقة فى توصيف المدارس الأدبية، مع دقة متابعة حركات التجديد، مع تحديد معاييره وصوره وأبعاده.

وكذلك يأتى تحليل أشكال التطور، ومستويات التجديد فى المحتوى، والشكل الفنى، مع القراءة الواعية لثقافة المبدع، ودراسة أثرها فى مقومات الإبداع، ثم ربط الثقافة والإبداع بإيقاع المرحلة وجداول الفكر، بما فيها من التعددية والشمول.

وعلى إثرها يأتى تحليل صيغ الخطاب الفردى والخطاب الجماعى، وما بينها من تجانس أو مفارقات، وكشف ما وراء الخطاب الجماعى من دلالات، وما وراء الرموز والإشارات من معان وأبعاد.

وحول مفهوم النقد التحليلى، يدور حوار الباحث بدءا من :

- التحليل الفنى، أو التفسير، بدءا من أبسط مكونات النص من الحرف والصوت، إلى المقطع والمفردة، وصولا إلى التراكيب والصور الكبرى، ثم الأطر الحاكمة لبنية النص.. ثم التحليل النفسى فى قراءة اللاوعى ، أو قراءة الظواهر النفسية فى سياق حركة المبدع مع المجتمع ، عراكا معه أو تصالحا، أو حركته من خلال قوانينه الفردية ، أو قوانين الجماعة من باب الاتساق والتوافق معها، أو الثورة والتمرد عليها.
- التمكن من معرفة حدود العقد النفسية التى ربما حركت فى المبدع ملكات إبداعية بدءا من عقدة النقص ـ إن كانت واردة ـ كما حللها بعض علماء النفس، إلى عقدة النرجسية، إلى ظواهر الاستعلاء، أو البارانويا، أو الوقوع فى أى من دوائر جنون العظمة، أو توهج الذات، أو تضخم الإحساس بالغبن الاجتماعى، أو ما يشبه ذلك من مشكلات نفسية قد تترك أصداءها فى النموذج الإبداعى، بين صوره وتقاريره ورموزه وإشاراته.
- انصراف التحليل النفسى إلى دراسة الأسوياء فى تحليل الظاهرة الإبداعية ذاتها، ابتداء من تفسير الفكر القديم حول " وادى عبقر "، أو شياطين الشعراء، إلى مسألة الملكة، والحاسة الإبداعية، إلى الإلهام، وضغوط التجارب وأنماطها، إلى صقل الأدوات، وتوظيف المعارف على اختلاف مصادرها.

ثم تتراءى محاذير القراءة النقدية من المنظور المنهجى :

- بدءا من محاولة الخروج من سيطرة الآراء المقروءة، إلى توزيعها بين سوء النوايا وحسن المقاصد، إلى جانب ما قد يصيبها من عدم الدقة، أو قصور فى الأدوات،

أو الشطط فى الاجتهاد. مع الحذر تجاه المطروح فى مساق الرؤى الاستشراقية، لاسيما ما عرض منها ـ مثلا ـ حول قضايا الانتحال فى العصر الجاهلى، أو ما جاء محفوفا بالأخطار فى دراسة مثل شعر عصر صدر الإسلام تحت أوهام الادعاء بضعفه، أو العجز عن الإلمام بكل معطياته، التى ربما لا يجيدها المستشرق بقدر ما يجيد تمثلها أهل الاختصاص من أبناء اللغة.

- إنصاف الاستشراق فى حالة جنوحه إلى الموضوعية العلمية فى دراسة النص من خلال البنية والدلالة، بعيدا عن الشبهات، أو التورط فى إصدار أحكام قد تعكس الرغبة فى النيل من الموروث، أو المعتقد، أو ترمى إلى المساس بالمقدسات والثوابت، أو النيل من أهلها.

- عدم المبادأة بالهجوم على المادة القرائية إلا بعد عرضها على الحجج والبراهين والأدلة والأحداث، مع النأى عن توظيف الانطباع فى إصدار حكم نقدى، سرعان ما يتناقض مع بقية الأحكام الصادرة من المنطلق ذاته.

- عدم الإفراط فى الترميز، أوالسعى المبالغ فيه وراء الشفرات، أو الاندفاع خلف الفضاءات التى ربما يستغرقها النص، بما يوجب استكشاف مناطق الغموض التى قد يقع فيها الناقد ذاته، لاسيما حين يفقد سيطرته على أدواته، أو يعجز عن الغوص الحقيقى وراء أعماق المبدع لقراءة خصوصية التجربة بكل إملاءاتها وأبعادها.

- وجوب صناعة المقاربة النقدية بين ما ننقله من نظريات جاهزة هى وليدة إبداع مختلف، وأصداء ملابسات خاصة لدى الآخر، وما ننتجه ونفرزه من نظريات وأفكار، تبدو وليدة إبداعنا الإنسانى دون تعسف أو تكلف أو اختلاق، أو إضافات أو ادعاءات!

- ضرورة احترام البعد التاريخى والبعد التراثى بعيدا عن فكرة الانقطاع أو نزعة التحقير، وبمنأى عن منطق الإهمال أو عوامل التهميش، شريطة أن تتحول قراءة

التاريخ إلى قراءة ناقدة جادة تصله بالمعاصرة، وتجدد عطاءه حوارا وجدلا، وهو ما يمتد ـ بدوره ـ إلى تحديث الموروث فى دوائر الابتكار، والإضافة، والتجديد.

- كشف طبائع العلاقات النفسية والفنية، وصيغ العلائق الاجتماعية، مع وضوح منظومة المفاهيم حول ظواهر الاغتراب، أو الاتساق، أو التكيف، أو الانفصام، أو غيرها من صور التفاهم، أو النفور من المجتمع وعبر مساحات الواقع ومدارس الفكر.
- امتداد العلاقات إلى إعادة تشكيل العلائق والأنظمة اللغوية فى بنية الصور، وتنمية الخيال الصوتى، والارتقاء بالمفاهيم، والإيقاع والدلالات والرموز. ثم تشكيل العلاقة مع العالم من خلال قراءة الواقع، إلى نقد الذات، وفهم الآخر، إلى إعادة صياغة قوانين الفرد والجماعة دون تجن أو تجاوز أو خلط أو تصنع.
- تعدد أبعاد المصطلح، وتعدد دلالاته بين الوحدة من المنظور الموضوعى، وبينها فى السياق العضوى، وغيرها فى الإطار النفسى أو الفنى، ومثلها يكون التدقيق فى توظيف مصطلحات الصدق بالمعنى التاريخى، الفنى، الاجتماعى، الأخلاقى، الاجتماعى، القيمى ... إلخ.
- ثم الصدق فى قراءة الزمن، واحترام التاريخ، مع تحديد مفهوم الماضوية؛ بشرط ضمان التواصل المعرفى، وتجاوز ملامح الانقطاع، أو التغييب أو التجاوز، مع رصد محاور الإبداع وقيمه المتجددة عبر حركة التاريخ.
- تقدير مفهوم التوصيل واحترام ثقافة التلقى، وتقدير درجة تفاعل الجمهور مع المقروء، أو المسموع، مع تعزيز درجة الوعى بما وراء الدلالات من أبعاد.
- الوعى بما حول الظاهرة الأدبية، من علوم ودراسات وقوانين، مع كشف المحددات والدوافع والآثار والنتائج، عبر تحليل تطور مجالات الفكر والمفاهيم والحدود.

- الاعتداد بأية قراءة باعتبارها ابتكارا وإضافة، تسهم فى إثراء التجربة التاريخية والظاهرة الاجتماعية إسهامها فى إثراء عطاءات العمل ذاته، مع التوسع ـ بالطبع ـ فى تحليل مفهوم مصطلح القراءة بحثا عن المعانى الثوانى، أو ما وراء المعانى الأول من مؤشرات ودلالات وأبعاد ومساحات.
- البحث فى فضاءات الظاهرة الثقافية لدى المبدع ومجتمعه بين الدينية واللغوية والأدبية والنقدية والفكرية والعلمية، وما يبنى عليها من دوافع ونتائج تسهم فى حل ألغاز العمل، وتنتهى إلى تفسير كل منعطفاته ومعطياته، مع قراءة الحدود الفاصلة بين الفن وغير الفن، وكذا بين عالم الفضيلة والرذيلة، فى سياق منظومة القيم الحاكمة لحركة المجتمع وتوجهاته فى حدود النسق التاريخى.
- البدء من الصفر فى قراءة صريح النص وظاهره، ثم الامتداد إلى ماحوله من شرائح الانتقاء، وخصوصيات الزمان والمكان، والتأثر والتأثير، والأخذ والعطاء، والتناص والتجاوز، إلى صيغ التفرد والتميز والابتكار.
- على أن تعددية الوعى المنهجى لا تعنى التلفيق، بقدر ما تعنيه من القدرة على توفيق الأدوات، بين الاجتماعى منها والنفسى والقيمى والتاريخى والفكرى والفنى والشكلى وغيره.
- ويأتى تعزيز القراءة الداخلية للنص من واقع مفهوم البنية، وخصوصية النظام اللغوى، وكشف الرابط الحقيقى بين الدال والمدلول، والبحث عن المشترك النصى داخل النوع وخارجه، وصولا إلى تمييز الأصيل من الزائف، والجيد من الردئ.

ثم يأتى كشف الحدود الفاصلة فى الأبنية الثقافية بين الأسطورية والعلمية.. بين الخيال والواقع، بين المعرفة والعلم.. بين الحلم والحقيقة.. بين الرصد والتأمل.. بين صرامة المنهج وانطلاقة الذات فى فضاء القراءة، من خلال مقومات وأسس وأصول، تتكشف عندها الفواصل الحقيقية بين الوظائف والوسائل والغايات فى عالم الإبداع.